حمود بن سالم السيابي

"سَبلة الواتساب"
وثقافة البِنج بُونج

كان العُماني يدخل سبلة الكبار وذاكرته تشتعل بالأحداث الجسام التي لو بادر بإلقائها على الأسماع عند أول مناشدة عن العلوم والأخبار بين قتلٍ وجرحٍ وموتٍ وخسارةٍ وربحٍ وبيوعات ومشتريات لدارت إليه الرقاب ولرمقته العيون ولرفعه البعض مراتب ودرجات.

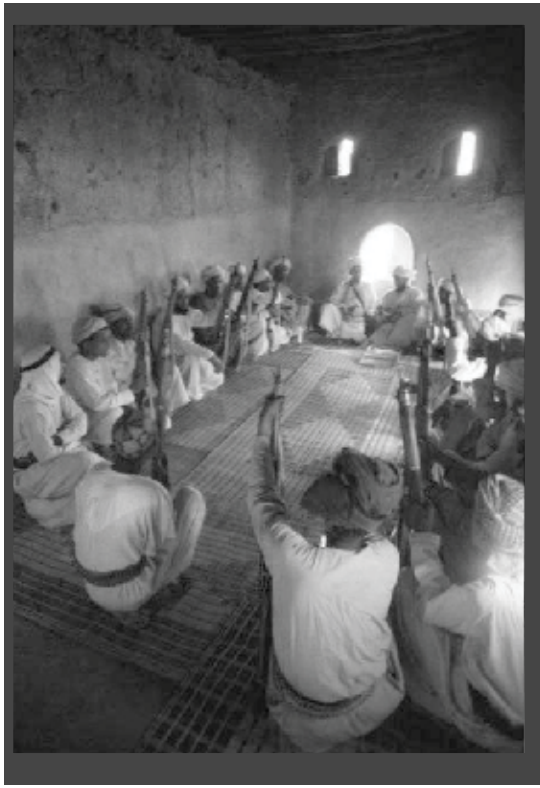

وكان العُماني وهو ينازع نفسه بين فضول تسجيل السَّبق؛ وبين التريث، مظنة الخوف والشك من أن الاخبار التي سمعها غير مُؤكدة، ينحاز بقوةٍ للتريث، حتى لا تسجله السَّبلة ناقلاً للأخبار غير الصحيحة، فيسقط من العيون؛ بدلا من أن ترفعه إلى ذرى الشوامخ ومستوى العمائم. وكان العُماني يدلف السَّبلة وعلى طرف لسانِه ألف قصةٍ وقصة، سمعها أو شارك فيها أو مرَّ بها وهو في طريقه للمكان؛ إلا أنه يجلس بين صمت الكبار، فيتحسَّب أنسب الأوقات للحديث، وأنسب الموضوعات المثارة ليتداخل بموضوعاته. وإذا ما أحس أن بين الموجودين في السَّبلة من الغرباء الذين لا ينبغي مشاركتهم بما يودّ قوله، يتريث في إفشاء السر، متذكرًا مقولة «**مِجَزْ في الجراب**»، التي تستخدم تورية لوجودِ غرباء بين الجالسين. وكان العُماني يدخل السَّبلة فلا يتساقط «رطب نغالته» مع أول فنجان قهوة يدلقه في جوفه، فيظل كل رطبه في عذوقه، ولا يسمح له أن يتساقط، ولا يسمح لكائنٍ من كان أن «يخرفه»، ليبقى دومًا صاحب النخل والرطب، وبيده «المخرف والصوع» وحبل «الموراد». وإذا تحدث العُماني في السَّبلة لا يطلق الأمور على عواهنها فيبقى ممسكًا بالزمام، واضعًا ألف خط رجعة لحديثه، مستفتحًا بمقدمات تؤكد أن ما سمعه من مصادر غير مؤكدة، ولعلها ليست صحيحة، ولربما اختلطت في أذهان من سمعها منهم

ونقلها عنهم لكي لا يلام فيما بعد عن معلومة تبين أنها خاطئة، ولا يقترن اسمه بحكاية ملفقة، فقد تحسب لكلّ شيءٍ، وكان أمينًا مع نفسِه قبل أن يكون أمينا مع الناس. وفي كل حارة من حارات مدن وقرى عُمان، كانت هناك السَّبلة ببساطة مبانيها وفرشها كأول مدرسة للسلوك يبدأ «سفن موقعتها» في الرنين مع شروق الشمس وتنطفيء جمرات مواقدها عند الغروب فتسكت الدلال عن الفوران وتتوقف الفناجين عن الاحتكاك في يد «المغنم». وإلى هامات روادها كانت تُشد الرحال، وإلى حيطانها الطينية تستحث الخطى، وإلى مذاق قهوتها يحلو الحديث. ويرتفع تصنيف السبلة ودرجاتها ومراتبها بدرجات ومراتب عيون الحارة وشيوخها، فالسبلات التي توجد في حارة تتلألأ بعالمٍ من العلماء، لا بد وأن يتضوع عطره في جنباتها وتتلألأ أنواره في جلساتها، وتعم فوائد في الدروس التي تلقى فيها، ولا بد أن تكون مثل هذه السبلة مقصدًا لطلبة العلم، يؤمونها لينهلوا من معين سيد السبلة وروحها. وكذلك الحال مع سبلةٍ تتفيأ ظلال مشيخة كبيرة وشخصية إجتماعية وقيادية فذة، حيث تتحول فيها السبلة إلى منبر للتاريخ، ومدرسة لتأهيل القيادات، فتكثر النوق التي تنيخ الرحال بجانب جدرانها، وتزداد أعداد السيارات التي تتزاحم في المواقف وتتعدد القدور التي تغلي و الصحون التي تهوي إليها الأيادي. وتكثر في سبلة المشيخة حكايات الاغتراب والعودة وعجائب الأسفار ومغامرات المسافرين. والكلام نفسه ينسحب إلى بقية المفردات الإنسانية المؤثرة في المجتمع، حيث يورث هؤلاء الكبار مرتادي السبلة ثقافتهم وخبراتهم وتجاربهم عن السوق والصرف والفلج والقعد (الإيجار) والبادة والتنبيت والحدار، وعن خنجر وسكين فلان وتفق وسيف وكتارة علان. وتتربى الأجيال في السبلة على جمال الخطوط وتتبارى على التصويب بالشبح، إلى جانب تعلم حرفة إعادة تعبئة فوارغ الطلقات لبنادق «الصمعة والفلسي» القابلة للاستخدام لأكثر من مرة بحشوها بالبارود ووضع رأس جديد من الرصاص، واستبدال ما يسميه العُمانيون «بالقمعة» وهي نقطة قدح إبرة الزناد التي تحدث فيها شرارة النار التي تجعل الرمية تنطلق بقوةٍ إلى هدفِها فتصيبه في مقتل. وفي سبلات الحارات البسيطة يتدرب الصغار على الخوصيات من «سف وقلادة»، وفتل الليف وتحويله إلى حبال بحيث تخصص السبلة أطرافها لهؤلاء الحرفيين ليحرثوا الزمن في عمل يفيدهم ويدر عليهم دخلاً ويورث حرفتهم لأبنائهم. وينضح تراث السبلة العُمانية بالكثيرٍ من الوصايا التي تحث على صمت الصغار في حضور الكبار، وعدم التسرع في نقل القول أوالإبلاغ عن خبر من الأخبار. ولعل أهم ما تلقنه السبلة للأجيال هو أدب التخاطب، وأهم ما في هذا الأدب هو صدق الحديث، فيقف أصغر رواد السَّبلة وبيده دلة القهوة فتتبادل أفواه الفناجين والحديث، بينما ينصت بشغف لما يقال دون أن «يتلاقف الهرجة». ولأن السَّبلة العُمانية هي هبة أمسها الضارب الجذور، وابنة تاريخها الراعف بالكبار، ومن ذلك الأمس الزاهي تكرست حقيقة أن العُماني يتمنى لو أن له رقبة جمل تلجمه عن التسرع في القول، فتنتظر كلماته وقتًا لتخرج، وأداة توصيل طويلة من القلب إلى اللسان بطول رقاب الجمال. وكان العُماني **يتعامل مع الإشاعة على أنها أكاذيب يقترف صانعها وزرها ويشاركه في الوزر الناقل لها**، ولذلك يحرص العُماني على البقاء ضمن التصنيف النقي الذي إذا قال كلمة «إحزم أصبعك عليها» لوثاقتها ودرجة الصدق فيها. والسمعة مقدمة عند العُماني، فلا يعترف بما يسميه العصر بالكذبة البيضاء، ولكنه يوافق على التورية ففي معاريض الكلام لمندوحة، ولذلك يدخل سبلة آبائه أمينا مؤتمنًا، ينصت أكثر من أن يتكلم، و يُسْأَلْ أكثر من أن يَسْأَلْ. تلك هي

"السَّبلةُ القَدِيمةُ تحوَّلت إلى سُرادِقِ عَزاءِ"

السبلة التي عرفها العُماني، وصاغت سلوكه عبر العصور. **ولأن من طبائع الأمور التغير والتبدل، ولأن لكل زمن رجاله وسوقه وصرفه وبضاعته، كان للسبلة النصيب الأوفر في هذا التبدل والتغير**؛ ولكنه للأسوأ للأسف، فقد هجر الناس مدنهم وقراهم ونزحوا إلى مسقط، ومن لم يترك بلدته ترك حارته القديمة ونزح

لحارة جديدة تشكلت ضمن توسع البلدة والقرية، فخلت السَّبلة من مرتاديها، وعيونها وروحها واندثرت، وطويت البسط، وأرقت في المكان آخر الفناجين، وأطفئت المواقد وسكت رنين «سفن الموقعة» وتآكلت الحيطان وتهاوت الأسقف، وخرجت سبلة الحارة من حياتنا إلى الأبد، وتحولت من مدرسة تربي وتهذب وتعلم إلى سرادق عزاء ندخله لنجامل فلانًا أو نرد جميلا لفلان. واندثرت قيمها لتختزل اليوم في قاعة ندخلها لنشارك أفراح أسرة فلان فيما نسميه ب»الملَكة» فنتأنق بخناجرنا وعصينا ومصارنا وعطرنا لتشملنا صورة في المناسبة، أو لقطة في الفيديو. **ودخلت وسائل التواصل الإجتماعي حياتنا من «واتسب الى فيسبوك وتويتر وسناب شات وماسنجر وفيديو»، وغيرها؛ لتشكل سبلة هذا العصر**، فندخلها من دون استئذان، ونجلس فيها حيث نريد، ونتحدث فيها من دون تحفظ. ونؤمها بأعداد هائلة وبأسماء حقيقية أو بمعرفات مجهولة لأغراض في أنفسنا. **ولأننا نرتادها بوجوهنا أو نتوارى خلف أقنعتنا**، فإننا لم نحمل لها من قيم سبلات الآباء إلا فضيلة الإجتماع ضمن ما يعرف ب «الجروب» في الواتسب، أو «الفللورس» المتابعين في «الفيسبوك والتويتر»، وبالمقابل حملنا إلى هذه السبلة الجديدة كل النوازع الخيرة والشريرة، وأمطرنا جلساتها بسيل من التناقضات، **فباتت السبلة الجديدة في بعض أوجهها بؤرة للفتنة وحاضنة لتلفيق الأكاذيب وترويج الإشاعات**. وإذا مرت إشاعة في السبلة الجديدة تلقفناها وصدقناها وأضفنا إليها صورًا تسندها، **ومع تواترها تتحول إلى حقيقة فيصدقها حتى من ابتدعها**. وكم من سياسي أشبعناه موتًا بإشاعاتنا الكاذبة؟! وكم من عالمٍ جليلٍ يعطر دنيانا ولا يزال واريناه الثرى ومشينا في عزائه كذبًا وتلفيقًا؟! وكم من أديبٍ ترحمنا عليه ونعيناه وهو لا يزال يكتب أجمل قصائده ويتنفس عطر الحياة؟! وكم من شخصية عامة عيناها وأقلناها وأخرجناها للتقاعد وأمطرناها بوابل من التهم وواريناها للمثوى الأخير؟ وكم خلعنا قلوبًا وأوجعنا عيونًا واستبقنا النعي وتسابقنا إلى سرادقات العزاء؛ لدرجة أنه إذا مات اليوم شخص وبلغنا نعيه نتردد في تصديق حقيقة موته لكثرة الأخبار الكاذبة التي تناقلناها عنه، بل وحتى أقرب أقربائه باتوا يتحققون من بيته عن حقيقة الخبر وكذبه. **ولم تقتصر السبلة الجديدة التي تعتمد على التواصل الإجتماعي للإساءة للأفراد بل تطورت للإساءة للدول**. وسجلت السبلة الجديدة فصولاً مسيئة باللعب على وتر الأديان وبالتأجيج المذهبي والتطاول على الرموز والقبائل والأسر وللنيل من أعراق الناس وأعراضهم، فكم من المرات التي حملنا فيها بلادنا أخبارًا كاذبة تسيء لها في الداخل والخارج. واستدعينا في سبلة العصر للأسف كل الأمراض والأوبئة، وسابقنا «جوبلز» وزير دعاية هتلر في تطويره للإشاعة كسلاح فتاك، فتسببنا في تأزيم مجتمعاتنا ودولنا. وتحولنا في سبلة العصر المنقولة على الهواء إلى مباريات «البنج بونج» نتلقف ما يصل مضاربنا من تسديدات فنردها بأسرع من البرق لكي نسبق في اكتساب النقاط، فنكسب المباريات ونخسر أنفسنا. وبات رواد سبلة اليوم لا يقرأون ما يصل إليهم، فيستقبل الواحد منا رسالة عبر «الواتسب»، فيرسلها لصديقٍ، فما تلبث نفس الرسالة من أن تعود إليه، من نفس الصديق بعد ثوانٍ من إرسالها، ما يؤكد حقيقة أنه لا المرسل قرأها قبل أن يرسلها، ولا المرسل إليه تحقق من صلاحيتها قبل أن يرسلها عشوائيًا لقائمة أصدقائه. وبين ملايين الرسائل التي تمرر يوميًا عبر هذه الوسائل، **يحصل الاستغلال الخبيث بدس رسائل لإحداث بلبلة تهدد السلم الإجتماعي وروح التعايش وتعريض أمن البلاد واقتصادها للخطر، وترجج النعرات المذهبية والعرقية**. وبدلا من أن نُكذّب

"السَّبلةُ الحَديثةُ بُؤرةٌ لِلفِتَنِ وحَاضِنةٌ لِتَلفِيقِ الأَكَاذِيبِ وَتروِيجِ الإِشَاعَاتِ"

الإشاعة التي أحدثت كل هذه البلبلة وهذا الإحتقان، نصدقها للأسف وننفخ فيها الحياة. وبدلا من أن نتوجه بالنصح لمرسلها، نتلقفها ونعيد إرسالها من دون وعيٍّ بخطرها على السلم الأهلي. والأخطر فيما تواجهه سبلة اليوم، **هو ارتياد بعض الجهلة لهذا العالم الافتراضي الرائع فيسيئون لبلدهم من حيث يتوقعون أنهم ينتصرون له**، فيتعاملون مع التصرفات الفردية على إنها إملاءات حكومية ممنهجة. وقد يحدث أن يمتنع صراف في دولة من الدول من قبول عملة من العملات، فيتسرَّع الشخص بتصوير مشهد التحاور مع الصراف بالفيديو، ثم يدرج ما صوره في حسابه بالفيسبوك والتويتر وغيرها من وسائل التواصل الإجتماعي، يتعمد فيه إظهار أن الدولة الفلانية امتنعت من قبول عملة بلده؛ أو أن الصراف في الدولة الفلانية عرض سعرًا أقل لعملة بلده من سعرها الحقيقي؛ فيسارع المتداخلون في حسابه إلى **تهييج الناس وخلق رأي عام ضد تلك الدولة**؛ بينما المسألة ليست أكثر من تصرف فردي. أو يصور البعض تصرفا طائشًا وأهوجًا لموظف أمن في مركز من مراكز الحدودية أو مطار من المطارات على أنه إهانة في حق بلده ومواطنيه يلحقها موظفو تلك الدولة بإملاءات عليا؛ بينما المسألة أقل من ذلك بكثير، وإنها مجرد سلوك لموظف ربما أرهقه العمل أو ألم به عارض فظهر منه ذلك السلوك الشائن من دون أن تكون أجهزة دولته وراء ما أقدم عليه، فيتم تأليب الرأي العام ضد تلك الدولة. أو أن يتسبب موظف جمركي في تشديد التفتيش على حمولة شاحنة من الشاحنات نتيجة لسوء سلوك سائقها الوافد بتهريب مادة ممنوعة بين محتويات الشحنة، فيتشدد الموظف الجمركي في التفتيش لكل الشاحنات؛ فيتم تصوير الحادث على أن صرامة التفتيش كان متعمدًا، بهدف الإضرار بالحمولة وإفساد محتوياتها بتأخيرها. ولأن السبلة التي ربتنا لا تضع الكذاب تحت طائلة القانون، بل تكتفي بإسقاطه من العيون، كأكبر عقوبة تلاحقه طوال حياته؛ بينما حصائد الألسنة والأقلام والصور والأفلام، في سبلة اليوم، **تضع صاحبها تحت المساءلة القانونية**؛ وقد تكبه على منخريه في قعر السجون، فقد صدرت قرارات وإجراءات تصنف هذا النوع من الافتراءات والأكاذيب والإشاعات كأعمال جرمية تودي بمقترفها إلى السجون وتلحق به غرامات مالية. وقد رأينا الكثير من الحالات في الكثير من الدول، قادت أصحابها إلى السجون بسبب تغريدة تسرع بكتابتها، أو بموضوع في الفيسبوك كتبه دون أن يتنبه لخطورة ما اقترفت يداه.

إن وسائل التواصل الإجتماعي التي أسميناها سبلة العصر هي نتاجات علمية حضارية ابتكرها الإنسان لتخدم تقدمه وتيسر طرائق حياته، وتبقى فوائدها في حسن استخدامنا لها، وذلك بتمرير ما يفيد الإنسان وينمي مداركه ويثري معارفه ويرتقي بسلوكه ويحقق التقارب بين أفراده.

إننا ندخل سبلة اليوم المنقولة على الهواء برسالة صباحية مهنئة نمررها ملفوفة بالورد والأدعية ثم نتبعها بسيل من الرسائل الملغومة فنجعل تحايا الصباح التي أرسلناها مجرد مقدمات للآتي من الرسائل، وذلك على العكس من قيم وأخلاقيات السبلة التي تربينا فيها، والتي تبقى دائنة لتحايا الصباح كعهود ومواثيق، ودائنة لفناجين القهوة كأخوة ومودة وألفة، ودائنة للدروس التي تقدمها لمرتاديها.

فما أحوجنا لسبلة الأباء لنستعيدها خصالا، إذا استحالت الاستعادة جدرانا. وما أحوجنا لأن ندخل لنجالس الكبار ونتطبع بمكارم أخلاقهم. **وما أحوجنا لصدق الحديث وصدق نقل الحديث**. وما أحوجنا لسبلة تسطع بطهر العمائم، نجالسها فنتربى ونتعلم ونتطبع ونتخلق ونكبر ونشب عن الطوق. **وما أحوجنا لنتخلص من فضول السبق الصحفي** و «ثقافة البنج بونج»، ونعيد المجد لعبارات «سرك في بئر» و «للحيطان آذان» و «مجز في الجراب» و «طول رقاب الجمال لتطول دروب المقال «.

وما أحوجنا لأن نبحث في وسائل عودة السبلة التي خرجت من حياتنا لتقود من جديد دفة الحياة.